الحركة الأدبية بتونس خلال العهد العثماني

The literary movement in Tunisia during the Ottoman era

زاوي أحمد[1]
جامعة يحيى فارس _ بالمدية
azaoui6@gmail.com
مخبر الدراسات التاريخية والمتوسطية عبر العصور
رشيد مياد
جامعة يحيى فارس _ بالمدية
rachidmiad@yahoo.fr
مخبر الدراسات التاريخية والمتوسطية عبر العصور

تاريخ الوصول 2022/07/15 القبول 2023/05/07 النشر على الخط 2023/06/05
Received 15/07/2022 Accepted 07/05/2023 Published online 05/06/2023

ملخص:

سنحاول من خلال هذا البحث العلمي الذي جاء تحت عنوان "الحركة الأدبية بتونس خلال العهد العثماني" رفع اللثام عن واقع الحياة الثقافية بتونس وعن حال المؤسسات التعليمية وأهم المقررات العلمية التي كان يتحصل فيها طلبة العلم على الإجازة، وأوضاع تونس في المجال العلمي، ومدى مساهمة حكام الدولة في انشاء المساجد والمدارس وتشجيعهم لطلبة العلم واحسانهم لهم، وهو الأمر الذي ساعد على ظهور علماء أعلام أثروا الساحة الفكرية بإنتاجهم الأدبي، فسدوا به فراغاً أدبيا كانت المكتبة بحاجة إليه، وهو ما جعل تونس قبلة لطلبة العلم من مختلف الأقطار.

الكلمات المفتاحية: الحياة العلمية، تونس، التعليم، الحركة الأدبية، الحياة الثقافية.

Abstract:

We will try through this scientific research, which came under the title "The Literary Movement in Tunisia during the Ottoman Era .",Lifting the veil on the conditions of cultural life in Tunisia, the state of educational institutions and the most important scientific courses in which students of science used to obtain a license, And Tunisia's situation in the scientific field, and the extent of the state's rulers' contribution to the establishment of mosques and schools, their encouragement to students of knowledge and their kindness to them, Which helped the emergence of media scholars who enriched the intellectual arena with their literary production, they filled a literary void that the library needed this is what made Tunisia a destination for students of knowledge from different countries.

Keywords:. Education; scientific life; cultural life; Tunisia; literary movement

[1] المؤلّف المراسل: زاوي أحمد البريد الإلكتروني: **azaoui6@gmail.com**

1. مقدمة:

تميزت الحياة العلمية بتونس خلال العهد العثماني بنهضة فكرية وأدبية، ميزتها نوعية العلوم المدرّسة والإقبال الكبير على طلب العلم من طرف التونسيين، كما لقيت الدعم من طرف الحكام من خلال رعاية أهل العلم من جهة وانشاء المدارس والمؤسسات العلمية التي أوقف لخدمتها أوقاف كثيرة من جهة ثانية.

وبالرغم من أن التعليم الذي عرفته البلاد خلال العهد العثماني وحتى قبله كان تعليم ديني تقليدي يتم في المساجد والمدارس القرآنية والزوايا، إلا أنه لعب دور في ظهور العديد من العلماء الأعلام الذين تركوا تراثا فكريا ثمينا لايزال يدرس إلى اليوم، وحفظوا لتونس تراثها الأدبي، وعلى هذا طرحنا الاشكالية التالية: ماهي مميزات الحياة العلمية بتونس خلال العهد العثماني؟ وماهي أهم الآثار الفكرية التي ظهرت خلال هذه الفترة؟ وللإجابة على هذه الإشكالية قمنا بالبحث عن أوضاع الحياة العلمية بتونس قبيل العهد العثماني، ثم تطرقنا لمميزات الحياة العلمية خلال العهد العثماني، ثم قمنا بعملية جرد لأهم أعلام تونس وأهم آثارهم الفكرية في مختلف العلوم والفنون.

2. الحياة العلمية بتونس قبل العهد العثماني:

عاشت تونس خلال العهد الحفصي(1227-1574م) أوضاعا ثقافية خاصة، بحيث أنه لا يمكنك أن تبحث عن أي فن من الفنون أو علم من العلوم أو أي شيء من المعارف الأخرى إلا وجدته قائما[1] فقد وصفها العبدري في رحلته "تونس مطمح الآمال ومصاب كل برق ومحط الرحال من الغرب والشرق وملتقى الركاب...لا تنشد بها ضالة من العلم إلا وجدتها"[2] وقد لقيت التشجيع من طرف الحكام الحفصيين الذين خصصوا منح مغرية لطلبة العلم، وشجعوا الشعراء والأدباء واستقطبوهم من المشرق والمغرب، كما عملوا على توفير الكتب والمكتبات، وأسسوا ديوان الإنشاء الذي دفع بالكتابة الأدبية أكثر، إضافة إلى الإسهامات المادية التي قدمتها بعض العائلات الميسورة مثل عائلة التجاني وعائلة ابن خلدون[3].

وقد تغيرت ملامح الحياة الثقافية زمن الدولة الحفصية بتونس كثيرا[4]، إذ يعتبر العهد الحفصي بتونس عهد ازدهار حضاري وأدبي اختص به هذا العصر[5]، فقد شهدت تونس ازدهارا ثقافيا ونشاطا علميا جعلها مركز اشعاع حضاري ووجهة للكثير من الرحالة العرب والغربيين الذين انبهروا بما وصلت إليه تونس من نهضة أدبية وعلمية وثقافية،[6] كما انتشرت عملية التعريب التي صاحبها

1محمد النيفر، عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم وأديب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، مج1، ط1، 1996، ص253.

2محمد العبدري البلنسي، الرحلة المغربية، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر ، ط1، 2007، ص68.

3 أحمد الطويلي، في الحضارة العربية التونسية، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، د.س.ن، ص39.

4محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، دار سراس للنشر، تونس، ط3، 1993، ص59.

5أحمد الطويلي، الأدب بتونس في العهد الحفصي(625- 981هـ/ 1227-1574م)، مركز النشر الجامعي، تونس، 2004، ص5.

6الطويلي، في الحضارة العربية...، نفس المرجع، ص7.

ظهور المذهب المالكي الذي انتشر أكثر على يد مجموعة من العلماء من أمثال ابن عرفة[1] (ت1401م) حتى وصل إلى غاية واحات جنوب قسنطينة[2].

كان اهتمام المربين أكثر بقضايا التربية والتعليم الديني، فقد اعتبر القرآن هو أصل كل معرفة، لما يقدمه من غذاء للروح يشبع الناشئة ويكون لهم مانعا من الانحراف والضياع، وبمأن النص القرآني يتطلب من المسلم أن يترجم علمه إلى سلوك فإن المعلمين عملوا على طبع علوم القرآن التي يتلقاها الطلبة على سلوكاتهم وعاداتهم ومعاملاتهم، وهو نفس الأمر الذي نجده في كثير من الأقطار العربية حيث أن مختلف مراكز التعليم جعلت من التعليم الديني هو المحور الرئيسي، كما أن تعليم الكتابة والخط والقرآن وإعرابه كانت من العلوم الإجبارية، أما باقي فنون الأدب والشعر والتاريخ والحساب فهي غير إجبارية على طلبة العلم، وإنما كان لها مكان في الدراسة الحرة لهذا لا يمكن ان نجد مناهج خاصة بهذه العلوم، لكن رغم ذلك نجد مجموعة من المؤلفات في هذه العلوم من بعض من استهوتهم الدراسات التاريخية والذين كانوا غالبيتهم من الأندلسيين، ومنهم نذكر الحجاج يوسف بن محمد بن ابراهيم الأنصاري(ت1256م) صاحب كتاب "الحماسة" وكتاب "الأعلام" وكذلك أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نخيل كاتب الوالي الحفصي الذي كتب في التاريخ وكان قد اعتمد عليه ابن خلدون والزركشي، إضافة إلى ابن الأبّار(ت1260م) الذي كتب على غرار التاريخ في عدة فنون أخرى وكتب أيضا "الحلة السيراء" الذي احتوى على تراجم لعدد من الشخصيات التاريخية في المغرب والأندلس من القرن الأول إلى القرن السابع الهجري، ومن مؤرخي العهد الحفصي نور الدين ابو لحسن علي بن موسى بن محمد بن سعيد الغرناطي صاحب الرحلتين وقد اشتهرت في كتب التاريخ بتاريخ ابن سعيد، كما كتب ابي زيد القيرواني(ت1300م) كتاب "معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان" وهو من أربعة أجزاء رتب فيه العلماء الذين دخلوا القيروان منذ الفتح حسب الوفيات، جاءت بعدهم مجموعة ثانية من مؤرخي القرن الخامس العشر الميلادي في طليعتهم عبد الرحمان بن خلدون المشهور بمقدمته وكتاب "العبر"، وابن قنفذ القسنطيني صاحب "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية"، وابن اللؤلؤ الزركشي صاحب "تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية"[3].

ويعتبر كتاب "المؤنس في أخبار افريقيا وتونس" من أهم المصادر التي أرخت للفترة وكتبت عن إشعاعها الحضاري غير أنه قليل الموضوعية في تمجيده للعهد الحفصي[4]، كما شهد هذا العهد ظهور العديد من الأدباء الذين أثروا الحياة الثقافية وترجمت آثارهم إلى إلى عدة لغات أجنبية مثل أحمد التيفاشي صاحب "نزهة الألباب فيما لا يوجد بكتاب" و"أزهار الأفكار في جواهر الأحجار" والقاضي النفزاوي صاحب "الروض العاطر في نزهة الخاطر" إضافة إلى الشاعر أحمد الغساني ومحمد شباط صاحب "صلة السمط

1 هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة أحد أعلام المذهب المالكي بالقطر الإفريقي، ولد بتونس سنة716هـ أصله من قبيلة ورغمة الواقعة بالجنوب التونسي، درس العلوم الدينية بجامع الزيتونة وقرأ على الشيخ محمد بن عبد السلام، برع في العربية والفقه وأصوله والقرآن واشتهر بالجد والاجتهاد وملازمة الشيوخ، تولى إمامة جامع الزيتونة سنة772هـ ثم ترقى إلى خطة الإفتاء بالدولة الحفصية، توفي سنة803هـ/1401م ودفن بجبل الزلاج. أنظر: حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، د.س.ن، ص116.

2الشريف، مرجع سابق، ص60.

3ابو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع، الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1984، ص ص10، 15.

4 الطويلي، في الحضارة العربية...، مرجع سابق، ص21.

وسمة المرط" والشاعر محمد بن أبي تميم وعبد الرحمان الدباغ صاحب كتاب "معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان" و"مشارق أنوار القلوب وفاتح أسرار الغيوب" وأحمد الخلوف صاحب عدة دواوين في أغراض مختلفة[1].

هذا إلى جانب مجموعة من الأدباء الأندلسيين الذين عاشوا في تونس وكان لهم إنتاج أدبي من أمثال حازم القرطاجني صاحب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" ومحمد بن الأبار صاحب "الحلة السيراء في أشعار الأمراء" وكذلك كتاب "إعتاب الكتاب" وابن سعيد صاحب "القدح المعلى في التاريخ المحلى" و"رايات المبرزين وغايات المميزين" و"المقتطف من أزهار الظرف" مثلما نذكر أدباء أندلسيين عاشوا بتونس خلال العهد الحفصي كأبي المطرف بن عميرة ومحمد بن أبي الحسين وأبا بكر بن حبيش وأحمد بن الغماز، وقد عرف الأدب بتونس عدة توجهات رئيسية، يتمثل الأول في الاعتداد بالنفس والافتخار والتعالي والشعور بالمجد وتصوير الأبهة في المظاهر العمرانية والمعمارية والحضارية الجديدة خاصة في مدينة تونس، وتوجه ثان يدعوا إلى التمتع بالحياة والذي ساهم في بروز عدد من الأدباء الذين اشتهروا بأشعارهم ومؤلفاتهم النثرية، والتوجه الثالث عرف بالبحث في الحقائق العلمية في الأدب والفنون[2].

وصارت تونس في العهد الحفصي مركزا نشيطا من مراكز الأدب وفنونه خاصة البلاغة والنقد الأدبي والعروض والنحو والصرف، كما كانت مركزا لتأليف الكتب في شتى الاهتمامات الفكرية والأدبية[3]، وازدهرت فيها الحياة الفكرية بفعل الإنتاج الشعري والنثري الذي كان ذا قيمة فنية راقية خاصة في أشعار ابن الأبّار وحازم القرطاجي وأحمد الغساني وابن القوبع وابن الخلوف وأبي الفتح بن عبد السلام[4]، كما تميز بتزاحم التيارات الثقافية الوافدة على تونس من المشرق والمغرب، فمن المشرق جاء ابن زيدون الذي كان ينتسب للمدرسة الفاضلية ومدرسة ابن شكر، والدكالي الهسكوري (ت1294م بتونس) والذي كان اقبال الناس عليه شديدا وهو الذي لازم العز بن عبد السلام كثيرا وانتفع بعلمه، ومن الغرب توافد على تونس كثير من العلماء والمفكرين الذين شجعهم حكام الدولة الحفصية على الهجرة نحو تونس، وكان هؤلاء الأندلسيين قد جلبوا معهم مختلف العلوم والآداب التي عرفتها تونس، مثلما ورد أيضا التيار الصوفي الأندلسي على يد أبو الحسن الشاذلي (ولد1197م بالمغرب) الذي لم ينتشر في البداية بتونس بسبب اصطدامه ببعض فقهاء تونس[5].

ومن أشهر بيوت العلم بيت آل التجاني الذي نادرا ما لا تجد منهم أو من نساءهم من لا يقول شعرا، وكان أشهرهم الشيخ أبا الحسن علي بن إبراهيم التجاني الذي يعد بيته من أعرق بيوت التجانية، وكان من التجانيين العلماء والكتاب والشعراء، وهو ما أهلهم لشغل بعض خطط الدولة الحفصية،[6] حيث كانوا "من كبار الموظفين المنظور إليهم بعين التجلة والاعتبار في بلاط أبي زكريا

1الطويلي، الأدب بتونس...، مرجع سابق، ص6.
2نفسه، ص ص6، 7.
3الطويلي، في الحضارة العربية...، مرجع سابق، ص8.
4الطويلي، الأدب بتونس...، مرجع سابق، ص7.
5 ابن الشماع، مرجع سابق، ص ص7، 9.
6 النيفر، مرجع سابق، ص ص253، 273.

الأول" إضافة إلى الأخوين إبراهيم وأحمد الذين كان لهم حضور في المحافل الأدبية لشهرتهم بالعلم الواسع والأدب الغض، ومنهم تفرع نسل التيجانيين، وكانت قد رفعت هذه الأسرة راية العلم والأدب في البلاد التونسية مدة لا تقل عن الثلاثة قرون[1].

وظلت تونس خلال هذه الفترة مركزا لتلاقح الأفكار والنقاشات الفقهية والأدبية، مثلما صارت مسرحا للتنافس الفكري والأدبي، حيث جمعت بين عدد من الأدباء الأفارقة والمهاجرين الأندلسيين بتونس مثلما كان بين أحمد الغساني وابن الأبار، وحتى بين الأندلسيين أنفسهم كالذي كان بين حازم القرطاجني وأبي المطرف بن عميرة[2]، وصارت هذه المجالس تشكل متعة أدبية وعلمية لروادها فقد كانت تنشد فيها الأشعار مثلما كان المجال مفتوح أمام النقاشات الراقية، وتبادل المعارف اللغوية والأدبية[3]، وعمل الأمراء الحفصيون على رعاية وتشجيع الأدباء والفنانين وإنشاء المؤسسات الدينية من جوامع ومدارس ومكتبات مثل مكتبة أبي زكرياء الأول التي كانت مكتبة ثرية بمؤلفات زادت عن 36ألف عنوان، والمكتبة الفارسية وغيرها، وانتداب الأدباء للكتابة في ديوان الإنشاء، كما ظهر بتونس عديد المؤرخين الذين برعوا في التأريخ خاصة لتونس من أمثال الزركشي وابن قنفذ وابن الشماع وابن خلدون الذين أسسوا للحركة الثقافية والأدبية بتونس وساهموا في التأريخ للإشعاع الحضاري الذي حدث بتونس.

كان الأمراء الحفصيين الأوائل أصحاب دواوين شعرية؛ أحاطوا أنفسهم بعدد من الأدباء والعلماء، وهو ما أدى إلى انتعاش الحياة الفكرية والأدبية بتونس، كما عرف هذا العهد خروج العديد من العلماء والأدباء في رحلات إلى المشرق؛ ومنهم نذكر أبا عبد الله بن القوبع الذي حصل بمصر على تقدير علمي كبير وحظي بمكانة اجتماعية هامة، وبرهان الدين الصفاقسي العالم النحوي واللغوي الذي اختار القاهرة مقرا لإقامته التي ألف فيها كتابه الشهير "المجيد في إعراب القرآن المجيد" في أربع مجلدات، بينما اقام أخاه شمس الدين بدمشق وجلس بجامعها الأموي مقرئا ومؤلفا، وكلف فيها بعدة وضائف سامية، ومن العلماء المهاجرين إلى مصر أبو المواهب بن زغدان، وأبو عبد الله محمد القلشاني، ومن العلماء المقيمين بدمشق محمد بن جابر الوادي آشي، ومحمد مغوش وأبو الفتح محمد بن عبد السلام الخروبي، ومن المقيمين بالمدينة المنورة أيمن أبو البركات، وبمكة محمد الونوغي، ومحمد بن عزم، والشاعر محمد اللواتي،[4]وعلى الرغم من سيطرة المدرسة الفقهية على الساحة الثقافية في المراحل الأخيرة من عمر الدولة الحفصية إلا أن صناعة الكتابة عرفت ازدهار كبير بعدما تولاها جماعة من أسرة التيجاني[5].

مثلما ظهر بكامل أنحاء البلاد ظاهرة التصوف التي انتشرت في المغرب العربي منذ العهود السابقة التي كان أهم أقطابها سيدي أبي مدين في تلمسان، وسيدي أبو سعيد في شمال مدينة تونس، وسيدي أبو الحسن الشاذلي في الجنوب التونسي[6]، وبوفاة ابن عرفة عام1401م عرفت البلاد حالة من الركود العلمي واغلق باب الاجتهاد، وضلت علوم الدين تعتمد على الاجترار وأصبحت علوم تقليدية تعبر عن ثقافة أصحابها مثلما عجزت عن الاستجابة لمتطلبات ذلك الزمن، زادها انطواء العلماء على أنفسهم وانعزالهم في

1أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، رحلة التجاني، ، الدار العربية للكتاب، تونس، د.ط، 1981،ص ص يه، يو.

2الطويلي، في الحضارة العربية...، مرجع سابق، ص9.

3نفسه، ص38.

4نفسه، ص ص9، 11.

5نفسه، ص30.

6الشريف، مرجع سابق، ص61.

الزوايا، وصار الناس يعتقدون الصلاح في أولياء هذه الزوايا، وقد كتبت الدراسات التاريخية التي تناولت الفترة بأنها تميزت بكثرة الأوبئة والمجاعات التي جعلت الأهالي يطلبون الشفاء من هؤلاء الأولياء ويتدافعون للتبرك بهم في مناسبات معلومة، وهذا إنما يعبر عن الجهل الذي ساد في أوساط العامة، حتى صارت ظاهرة عبادة الأولياء والتبرك بهم معتقد شعبي[1].

ومع نهاية عهد أبي عمرو عثمان عرفت البلاد حالة من المد والجزر في أحوالها السياسية بتولي سلاطين ضعاف للحكم فكانوا غالبا ما يستنجدوا بالإسبان، قبل أن يأتي الاحتلال الإسباني الذي قضى على المعالم الحضارية للمدينة، وأحرق نفائس المخطوطات التي كانت محفوظة بالزيتونة واتلفها ونُقل بعضها إلى مكتبة الفاتيكان بروما ، وصاحب ذلك هجرة علماء المدينة وأدباءها، وهو ما أدى في الأخير إلى ضياع وتراجع معالم النهضة الفكرية والحضارية التي عرفتها تونس[2].

3. واقع الحياة الثقافية بتونس خلال العهد العثماني :

شغلت اللغة العربية في الدولة العثمانية مكانة مرموقة، باعتبارها أهم قنوات التعبير في الثقافة والأدب، كما كان يتم تدريس أغلب العلوم بها، وهو ما قد يفسر ذلك التداخل الحاصل مع اللغة العربية في ذهنيات الأتراك، وتقديرهم لها، كما كان تعلمها يشكل أحد الشروط الضرورية لتولي المناصب العليا في الدولة، خصوصا ما تعلق بالإفتاء والقضاء والتعليم، وبذلك استطاع العثمانيون التعرف على شخصية ابن خلدون وفكره[3].

كما تمتع الفقهاء ورجال العلم في تونس بمكانة اجتماعية مرموقة بالنظر إلى علاقاتهم بالحكام وارتباطهم بالجهاز الإداري وتأثيرهم في العامة وطلبة العلم والموظفين في القطاع الديني، فكانوا يشكلون حلقة الوصل بين الحكام والسكان مثلما كانوا عامل مهم اكتسب من خلالهم الحكام شرعيتهم السياسية، لهذا بادروا إلى رعايتهم واستعمالهم في الوظائف الشرعية، ومن الملاحظات المهمة على السلطة هي عدم سماحها لرجال العلم بأن يتحولوا إلى قوة ضاغطة ومؤثرة لهذا اقتصر دورها على خطة الإفتاء والقضاء، حيث تولى خطة القضاء شيخ الإسلام الملقب بالأفندي والذي عادة ما يكون من الأحناف العثمانيين أو الكراغلة أو الحضر الأشراف، وأشهر من تولى هذا المنصب هو الشيخ رمضان أفندي الذي شغل الخطابة والإفتاء بجامع الأحناف(يوسف داي) ثم خلفه الشيخ أحمد الشريف من الكراغلة قبل ان تسند في العهود المتأخرة إلى آل بيرم المشرفين على المدرسة الحنفية والعنقية.[4]

وازدهرت الحياة العلمية بتونس بالموازاة مع ظهور العديد من المؤسسات التعليمية، كالمدرسة المرادية بمدينة تونس والمدرسة الجمنية بجربة التي انشأها مراد الثاني (ت1675م)، وكذا المدارس التي أنشأها محمد باي (ت1696م) بباجة والقيروان والكاف وقفصة وتوزر والقيروان بالإضافة إلى المدارس التي أنشأها حسين بن علي التركي(ت1740م) في سوسة والقيروان وصفاقس وقفصة ونفطة وتونس، وشمل القائمين عليها بالرعاية فقد سجل مرتبات ثلاثين مدرسا للتكفل بها، كما أسس علي باشا (ت1756م) عدة

1الشريف، مرجع سابق، ص ص60، 62.

2الطويلي، في الحضارة العربية ...، مرجع سابق، ص ص19-20.

3 عبد الجليل التميمي، دراسات في التاريخ العربي العثماني1453-1918، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، تونس، ط1، 1994، ص15.

4 ناصر الدين سعيدوني، ولايات المغرب العثمانية الجزائر تونس طرابلس الغرب، ، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2014، ص ص 152، 154.

مدارس، وجعل لها أوقافا للإنفاق عليها، وقد تميز بعضها بمستوى تعليمي عالٍ، حصل من خلالها الطلبة على إجازات من شيوخهم بعد التعمق في علوم الدين(الفقه وأصوله، علم الكلام، التفسير، القراءات والتوحيد) وعلوم اللغة(الصرف، النحو والعروض، البلاغة وغيرها) وبعض المعارف العلمية كالفلك، الحساب، المنطق وغيرها[1].

ومن المقررات العلمية التي كان يتحصل فيها طلبة العلم على الإجازة نذكر على سبيل المثال متن وشروح رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومتن وشروح وحواشي مختصر خليل، ومتن ابن أبي عاشر وابن الحاجب، ورسالة السنوسي بشرح البيجوري في علم الفقه وأصوله، وفي التفسير والقراءات تفسير ابن عطية وابن الجوزي والثعالبي، والشاطبية في القراءات، وفي الحديث ومصطلحه موطأ الإمام مالك وصحيحي البخاري ومسلم ومتن البيقونية وتذكرة القرطبي، وفي التصوف والتوحيد مصنفات ابن عطاء والقشيري ومتن الجزرية والإحياء للغزالي، وفي علم الكلام المقاصد وشرحها والعقائد النفيسة والإبراهيمية للسنوسي، وفي علوم اللغة وقواعدها متن الكافي في العروض والجوهر المكنون والأجرومية والمغني وقطر الندى لابن هشام وألفية ابن مالك بشروح ابن عقيل والماكودي والأشموني وفي الحساب والفلك والمنطق الدرة ومتن السنوسي،[2] ومما ورد في الباب الأول من تراتيب1330هـ في الفنون التي تقرأ في الجامع الأعظم والكتب التي تدرس تلك الفنون، ما جاء في الفصل الأول من جملة الفنون التي تدرس بالجامع وهي علم الحديث وعلم السير وعلم التوحيد وعلم القراءات والتجويد وعلم اصول الفقه وعلم الفرائض وآداب الشريعة وعلم النحو وعلم الصرف وعلم المعاني والبيان وعلم اللغة والأدب ومنه الإنشاء وعلم التاريخ والجغرافيا، وعلم الرسم والخط، وعلم العروض وعلم المنطق، وعلم آداب البحث وعلم الحساب ومنه الجبر وعلم الهندسة وعلم المساحة وهي علوم اجبارية وماعدا ذلك فهي اختيارية، وأما الكتب المبرمجة للتدريس في الفنون المسطرة فهي على ثلاث مستويات حسب مراحل التعليم (ابتدائي، متوسط، عالي)[3].

كما كانت مساهمة حكام الدولة التونسية في إنشاء الجوامع والمدارس وتمويلها قد لعبت دور مهم في تنشيط الحركة الأدبية بتونس، ومن ذلك ما قام به أحمد باي في ديسمبر 1842م الذي جعل رواتب لثلاثين مدرسا (نصفهم من المالكية ونصفهم من الأحناف) من بيت المال، وزوّد مكتبة المسجد بكتب جاء بها من مكتبة القصر واخرى اقتناها وأوقفها على مكتبة الجامع، واهتم حمودة باشا أيضا بالكتب وحث العلماء على التأليف في مواضيع جديدة، فقد طلب من شيخ الإسلام محمد بيرم الثاني تأليف كتاب في السياسة الشرعية يستأنس به ويقف من خلاله على ما تقتضيه الشريعة من حقوق وواجبات ليحكم بمقتضاها، وهو المؤلف الذي طبع بمصر وتونس عدة طبعات، كما تعاطى العلماء والأدباء المعاصرين مع بعض القضايا المعاصرة، الذي نجده من علماء الزيتونة في موقفهم من الحركة الوهابية، التي ألفت فيها الكثير من الرسائل[4].

وخلال القرن التاسع عشر دخلت تونس في اصلاحات واسعة خاصة في مجال التعليم فقد تأسست العديد من المدارس الابتدائية والثانوية ومدرسة للحقوق وأخرى للطب، كما تم ارسال العديد من الطلبة للدراسة في الخارج، وظهرت أيضا الجرائد فصدر العدد

1 سعيدوني، مرجع سابق، ص ص 141، 153

2 نفسه، ص 142.

3 جامع الزيتونة تراتيب التدريس، المطبعة الرسمية العربية، تونس، 1912، ص ص11، 12.

4 أحمد الطويلي، بناة الدولة التونسية الحديثة حمودة باشا وأحمد باي وخير الدين، ط1، المغاربية للطباعة وإشهار الكتاب، تونس، 2019، ص ص09، 18.

الأول للجريدة الرسمية للحكومة "تقويم الوقائع" في سنة1831م، كما تأسست ترجمة "أوده سي" أو إدارة الترجمة التي تحولت فيما بعد إلى وزارة الخارجية، ومنها تخرج العديد من رجال الدولة الذين واصلوا عملية الإصلاح الذي شرعت فيه الدولة العثمانية[1].

أما في البادية فلا نجد مثل هذه المدارس، ونجد بدلها الزوايا التي ارتبط انتشارها بانتشار حركة التصوف، لذلك فإن شيخ الزاوية كانت له مكانة مميزة بسبب الأدوار التي كان يتولاّها في الجوانب الاجتماعية والدينية، فقد كان يلعب دور المرشد والمعلم والوسيط والقاضي، وكانت لهم مكانة اكبر بسبب غياب السلطة المركزية في بعض المناطق، وهو الذي جعل شيخ الزاوية أكثر تأثيراً في مواقف شيوخ القبائل، وكانت كلمته مسموعة في حال النزاع، مثلما كانت لهم مهمة وساطة بين الإدارة في المدن وسكان الريف[2]، أما في الجانب العلمي فقد عملت الزوايا على نشر المعارف الميسرة والثقافة الدينية في أوساط العامة، من خلال بتحفيظ ما تيسر من القرآن الكريم وتلقين الضروري من أمور العبادة للحد من الأمية والجهل وتكوين ثقافة روحية محلية تزيد في تماسك البنية الاجتماعية[3].

ومن أهم الطرق الصوفية المنتشرة بتونس خلال العهد العثماني، الطريقة الشابية التي تنسب للشيخ أبي عبد الله محمد بن عرفة الورغمي دفين تونس (1399م) والتي توسعت في تونس حتى الشرق الجزائري غربا وطرابلس الغرب شرقا، ساهمت برجالها في مقاومة الإسبان، ودعم العثمانيين، يضاف لها الكرزازية أو الأحمدية (1608م) والعروسية والناصرية واليوسفية والمدنية والدردورية والعزوزية التي كان لها أتباع بتونس خاصة الوقائية التي أنشأها بصفاقس ميمون الوقائي عند قدومه من الإسكندرية وحافظت عليه أسرة الكرادي في تلك المدينة[4].

4. الحياة العلمية بتونس خلال العهد العثماني:

إلى جانب الثقافة الشعبية المنتشرة بتونس، سمحت المؤسسات العلمية خلال العهد العثماني بتخريج مجموعة متميزة من الأدباء والفقهاء الذين شغلوا المناصب الدينية والوظائف التعليمية التربوية من أتباع المذهبين المالكي والحنفي، وإليه يعود الفضل في المحافظة على التراث الإسلامي، وإثراء المكتبات بالثقافة العربية بما جمعوه من صنوف وشروح لمختف المعارف الفقهية، واللغوية والأدبية، والفنون العقلية، فكانت بذلك تشكل استمرارا علمي للعهد الحفصي والموحدي، ومن أشهر الأدباء الذين عرفتهم تونس الشاعر علي الغراب الصفاقسي (ت1769م)، وأبو عبد الله محمد الورغي (ت1776م)، وأبو الحسن علي الرصاع (ت1719م)، وأبو الحسن علي كرباصة (ت1674م)، وعاشور بن موسى فيكرين (ت1664م)، وأبو العباس سيدي أحمد الشريف (ت1681م)، ومحمد بن عاشور الأندلسي التونسي (ت1698م)، والشيخ اسماعيل التميمي (ت1882م)، والشيخ إبراهيم الرياحي (ت1850م)[5].

1ابراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني1516-1916، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، العراق، 2005، ص189.

2سعيدوني، مرجع سابق، ص 155، 156.

3نفسه، ص 144.

4نفسه، ص ص157، 159.

5 نفسه، ص ص145، 147.

وقد لعبت المدارس والزوايا ومؤسسات الوقف دور في المحافظة على الحياة الثقافية السائدة، كما سمحت بتأصيل الثقافة العربية الإسلامية، التي استمدتها من التقاليد والعادات المتوارثة من العهود السابقة، واحتضنت الأساليب والطرق الأندلسية، وهو ما جعل الاقتباسات العثمانية لا تتجاوز حد استعمال اللغة التركية في مؤسسة الجيش والإدارة والوظائف السامية[1].

أما طبقة الفقهاء فكانوا على جانب من علم الاجتماع متأثرين بسلفهم عبد الرحمان بن خلدون، حيث كان كل واحد منهم يغترف من فيضه ويرتشف من مناهله، فعلماء تونس كانت معرفتهم ودرايتهم بعلم الاجتماع تؤهلهم كثيرا للنظر في علوم السياسة وأحوال المجتمع[2] وقد لعبوا دورا مهما خلال مرحلة الإصلاحات التي شهدتها تونس فقد اسند إليهم مهمة ترجمة بعض الكتب الغربية خصوصا التاريخ والأدب الفرنسي[3] بمعهد باردو الحربي الذي كان يشرف عليه الشاعر محمود قبادو[4]، وهو المعهد الذي تخرج منه خير الدين وحسين رستم ومحمد القروي، المعروفين بثقافتهم العالية بفضل التكوين الذي تلقوه في اللغات الأجنبية إضافة إلى رحلاتهم إلى الدول الأوروبية، وتعرفهم عن قرب على المنجزات الحضارية في مجالات الصناعة والتعليم والثقافة والسياسة،[5] فكانت مشاركتهم واضحة في السياسة وهذا الذي نجده من خلال مشاركتهم في صياغة ومناقشة بنود عهد الأمان الذي حضره شيخ الجماعة محمد الشاهد وشيخ الإسلام حميدة بن الخوجة والشيوخ محمد الستاري ومحمد النيفر مفتي المالكية وحسونة عباس مفتي الحنفية، وكان لبعضهم رأي مخالف عن ما ورد في بنود عهد الأمان[6] وهم محمد بيرم الرابع وأحمد بن حسين ومحمد بن الخوجة[7].

وكانت الحركة العلمية بتونس قد عرفت تشجيع الحكام خاصة من الأمراء الحسينيون الذين أحسنوا لأهل العلم وأجزلوا لهم العطايا، ومما يروى عن الأمير حسين بن علي أنه كان يريد الإكثار من أهل العلم وطلبته، لذلك أمر ببناء مساكن للطلبة وعين المدرسين، وأنشأ الجامع الجديد الذي رتب له أربعة مدرسين وأوقف في سبيله أوقافا كثيرة، وبنى مدرسة بمدينة صفاقس ومثلها بالقيروان وقام بتجديد الزاوية القادرية بسوسة، وبنى مدرسة ببلد نفطة، وجدد معالم المدرسة المرادية بتوزر التي أسسها محمد باي المرادي مثلما جدد مدرسة قابس، ومدرسة الكاف، ومدرسة باجة، وعلى نفس النهج سار ابن أخيه علي باشا الذي كان شديد الحرص على نشر العلم، فكان يعظم العلم ويوقر أهله، ويتجاوز عنهم مالا يتجاوزه عن غيرهم، كما سعى لبناء عدة مدارس بالحاضرة منها

1سعيدوني، مرجع سابق، ص 164.

2محمد بن عثمان السنوسي، مسامرات الظريف بحسن التعريف، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط1، 1994، ص403.

3خليل، مرجع سابق، ص 218.

4ينتمي الشيخ قبادو إلى إحدى الأُسر التي هاجرت من الأندلس ولجأت إلى تونس، فرارا من محاكم التفتيش حيث استقر والده بتونس "وكان من طبقة الصنائعية (زنّادا) يعمل أزندة البنادق" ولد بتونس سنة1228هـ/1812م، وحفظ القرآن عن شيوخها ونهل من العلوم حتى نال أعلى المراتب العلمية، سافر بعدها إلى اسطنبول ثم عاد واشتغل مدرسا للعلوم الرياضية بالمكتب الحربي بالمحمدية، للمزيد انظر: زين العابدين السنوسي، محمود قبادو، مكتبة العرب، تونس، 1951، ص3.

5 الطويلي، بناة الدولة...،مرجع سابق، ص09.

6 عهد الأمان: أعلن قواعده الباي بعد التهديد الذي لقيه من الفرنسيين والإنجليز (عسكريا) مضطرا وهذا بسبب مقتل أحد اليهود المقيمين بتونس على خلفية سبه للدين الإسلامي، وجاء في إحدى عشر قاعدة تليت بنودها بالسرايا الكبرى بباردو في 09سبتمبر1857م، ووقع عليه المشير محمد باشا. أنظر : السنوسي، مرجع سابق، ص391.

7نفسه، ص ص393، 397.

المدرسة الباشية قرب الجامع الأعظم، والمدرسة السليمانية ومدرسة بير الحجار ومدرسة حوانيت عاشور، وعلى نفس الطريق سار ابن عمه الرشيد الذي كان يوقر العلماء ويجالسهم ويباسطهم وكان مولعا بالتاريخ والأدب، وأما ابن عمه الآخر علي باشا فقد بنى المدرسة الجديدة، وجعل مرتبات للمدرسين بالجامع الأعظم[1].

ومن أمراء الدولة الذين كانت لهم مساهمة في الحركة العلمية، نذكر الأمير أحمد باشا الأول مؤسس نظام التعليم بجامع الزيتونة[2]، الذي جعل له خمسة عشر مدرسا من الأحناف ومثله من المالكية، وبذلك زاد طلبة العلم في البلاد وانتشر العلم والثقافة بين الناس، كما شهدت تونس خلال فترة الإصلاحات التي وقعت في عهد الوزير خير الدين التي أوردها في كتابه "أقوم المسالك في معرفة الممالك" تأسيس مكتبة حديثة وفق النظام الأوروبي، كما أدخل تحديثات على نمط التعليم بالزيتونة، وتأسيس نظام جديد لإدارة الاوقاف[3]، كما أسس مكتب العلوم الحربية ليكون قاعدة لتخريج الضباط الفنيين والمهندسين وموظفي الدولة، التي استدعي لإدارتها لإدارتها ضابط إيطالي من المستشرقين الذين يجيدون اللغة العربية هو "إلاي كاليقاريس" كما جلب لها أيضا أساتذة من فرنسا وايطاليا وانجلترا لتدريس الرياضيات والرسم والفنون الحربية والتاريخ والجغرافيا واللغات الأوروبية وجعل إلى جانب الضابط الإيطالي أستاذ اللغة العربية محمود قابادو الذي تكلف بالإشراف على تحرير برامج المكتب، وجعله خير الدين مشرفا عاما على المؤسسة، وهو ما سمح بظهور تيارات فكرية جديدة في تونس[4].

وطبق نظام المدرسة الفرنسية على المدرسة الصادقية التي تم انشائها عام1874م التي تكونت لجنتها المكلفة بتحرير قوانينها وسن مناهج التعليم فيها من علماء ومشايخ الزيتونة، على اعتبار أنها مدرسة قومية تقدم تعليم ديني عربي إضافة إلى اللغة العثمانية واللغات الأوروبية والرياضيات والعلوم، وتعدى نشاط هذه اللجنة فيما بعد إلى ضبط مناهج التعليم في الزيتونة وترتيبها على درجات تحكمها امتحانات، وهو ما جعل المعاصرين لخير الدين يرون أنه نجح نجاحا كبيرا في مسعاه من انشاء الصادقية واصلاح التعليم الزيتوني[5].

ونتيجة لهذا التوجه الجديد وتبني اصلاحات على النمط الأوروبي عرفت تونس توافد كبير للجاليات الأوروبية، وصارت لهم حارات خاصة بهم في مدينة تونس، وكان تأثير نمط حياتهم واضحا في المجتمع التونسي الذي أصبح يقتبس من أساليبهم، فضاع

1النيفر، مرجع سابق، مج1، ص ص516 ،517.

2 جامع الزيتونة: يعود تأسيسه إلى سنة 134هـ وعرف أيام الموحدين والحفصيين أيام مجده فقد تخرج منه علماء أعلام تركوا آثار علمية تشهد لهم كابن عبد السلام وابن عرفة والبرزلي، لكن مع ضعف الحفصيين واحتلال الاسبان لتونس تدنست عرصاته وضاعت نفائسه المخطوطة، وتحول إلى اسطبل للدواب، ووقع تراجع في الحياة العلمية، وشعر الناس بقصور وعجز فكرى، ومع دخول العثمانيين تونس أعيدت له الحياة وألحقت به قاعات وبيوتات لطلبة العلم، ودعمت المكتبات برصيد من الكتب، كما تأسست أوقاف لفائدة المسجد وطلبة العلم، كما وضعت له ادارة خاصة به لتسيير دروسه ومراقبتها. للمزيد أنظر: الطاهر الحداد، التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة، تحقيق محمد أنور بوسنينة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1981، ص ص44، 49.

3خليل، مرجع سابق، ص220.

4محمد الفاضل بن عاشور، الحركة الأدبية في تونس، مطبعة دار الهنا، تونس، 1956، ص 13.

5نفسه، ص24.

الأدب وضعفت روحه وصار الأدب تقليديا لا يسعى لمسايرة العصر إلا من بعض ما كتبه مؤرخو العصر من أمثال ابن أبي الضياف صاحب "اتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الامان" ومحمد بيرم صاحب "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار"[1].

5. أعلام تونس وآثارهم العلمية

تركت الأقلام التونسية تراثا علميا كبيرا من خلال مؤلفاتهم التي أَثْرَت المكتبة التونسية في مختلف الفنون والعلوم والتي نأتي بها على سبيل الذكر لا الحصر فيها:

أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم المعروف بابن أبي دينار (ت1698م) الذي جمع علما وأدبا واشتهر بين بلغاء عصره، واعتنى بالتاريخ فألّف "المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس" الذي أرخ فيه للمراديين، وذكر فيه بعض علماء عصره[2].

الشيخ أبو العباس أحمد برناز (ت 1726م)الذي ذكره حسين خوجة في "بشائر الإيمان"، كما ورد ذكره في كتاب "تراجم المفتين" للشيخ محمد بيرم الثاني أنه قرأ على يد الشيخ الصوفي مفتي الحنفية كما أخذ العلم عن الشيخ يوسف درغوث الأصغر، وكان يقول الشعر وهو مؤلف كتاب "الشهب المحرقة" والشيخ أبو عبد الله محمد بن الوزير السراج (ت1725م) الذي ينتمي إلى أسرة أندلسية، وصفه حسين خوجة في كتابه "ذيل بشائر أهل الإيمان" بالفاضل الفقيه النبيه والأديب البارع، من أهم آثاره كتاب التاريخ المشهور بتاريخ الوزير السراج الذي نشر في ثلاثة أجزاء، ومحمد بن الشيخ محمد بن محمد الشريف الذي نشأ بتونس وأخذ العلم عن علمائها، ولما بلغ درجة من التحصيل تصدر لنشر العلم، وبذلك اشتهر ومن آثاره "مفاتيح النصر في التعريف بعلماء العصر"[3].

أبو العباس أحمد الأصرم المعروف برئيس الكتاب، كان ملازم للأمير محمد الرشيد الذي لجأ إلى إيالة الجزائر[4]، كان ذا حضوة عند أمراء الدولة لذين أكرموا أبناءه من بعده، وأبو الحسن علي غراب من الذين اشتهروا بعلوم الحساب والفلك والمنطق وعلم التاريخ والبلاغة، كان مجيدا للشعر، اعترف به أهل الفضل مشرقا ومغربا[5].

الشيخ محمد بن علي بن سعيد الحجري صاحب حاشية على "شرح الأشموني على ألفية الإمام مالك" كما كتب "حاشية على شرح الخبيصي على التهذيب" وله حاشية على "السكتاني" في علم الكلام، وله رسالة في علم المنطق سمّاها "اللوامع" وديوان شعر سماه "الفلك المشحون" جمع فيه شعره وجملة من نثره، كانت له مكاتبات مع مشاهير العلماء الذين نوهوا بما وجدوا في محرراته العلمية، وكان قد راسله الأمير حمودة باشا لتولي خطة كتابة الإنشاء لكنه رفض الوظيفة وفضل مزاولة دروسه[6].

أبو عبد الله محمد بن عبد الكافي بوعتور الذي كان فقيها فرضيا(علم الفرائض) أديبا شاعرا خدم الدولة الحسينية كاتبا مثلما قدم دروس الفريضة بمدينة الجزائر (ت1195هـ)، والشيخ أبو محمد حسين بن أحمد بن محمد بن حسين الصفاقسي الذي نشأ في بيت

1نفسه، ص ص08، 10.

2النيفر، مرجع سابق، ، ص477.

3نفسه، ص ص508، 818.

4رافق محمد الرشيد باي في منفاه بالجزائر فيما بين1740 إلى1756م، وكان معهم أيضا الشيخ محمد الشافعي الباجي، للمزيد أنظر: الطويلي، في الحضارة...، مرجع سابق، ص ص135، 139.

5النيفر، مرجع سابق، ص ص531، 532.

6نفسه، ص ص549، 550.

علم وفضل ووجاهة، توارثها الخلف عن السلف، قال عنه الشيخ محمد مقديس في تاريخه أنه عمدة ثقة متفنن متقن متمكن من علوم اللغة بأنواعها وعلوم الفقه والأحكام والحساب والفرائض والقراءات والحديث والتفسير والمغازي والسير، عارف بعلوم الفلك والميقات، تولى الخطابة بالجامع الأعظم، ثم تولى منصب الإفتاء رفقة أبيه بعدما عرضت عليه وظيفة القضاء التي رفضها، وتوفي بالطاعون سنة1199هـ، والأديب أبو عبد الله محمد السنوسي الذي قال فيه ابن أبي الضياف أنه كان على درجة من العلم والفضل وكان آية في الشعر والأدب، وشعره يسع ديوانا معروفا عند أهل الأدب، والشيخ أبو عبد الله محمد الشحمي من مفاخر خريجي الزيتونة وأحد أعلامه، تخرج على يديه الكثير من الشيوخ أمثال محمد الدرناوي وأحمد الشرفي، وكان مشهوراً بعلم الكلام والمنطق كما كان يجيد الشعر[1].

الشيخ أبو عبد الله محمد الدرناوي الصفاقسي الذي كان قد انتقل إلى مصر وأخذ عن الشيخ كعيب التونسي ثم قدم إلى صفاقس وأقام بالمدرسة ملازما للشيخ الطيب الشرفي ثم انتقل إلى تونس وكان رفيق أبا عبد الله محمد الشحمي، وتولى التدريس بجامع الزيتونة، ثم تولى مشيخة المدرسة المرادية رغم أنه كان كفيف البصر ثم رجع لبلدته "درنة" التي توفي بها[2].

أبو عبد الله محمد بن حسين بيرم المشهور ببيرم الاول وهو مؤسس المجد العلمي للبيت البيرمي، ترجم له ابنه محمد بيرم الثاني في كتابه "تراجم المفتين الحنفية" أنه ولد في شوال1130هـ وأنه جدّ في طلب العلم فأخذ عنه منقولا ومعقولا، فروعا وأصولا عن جهابذة عصره أمثال السويسي والماكودي وقاسم المحجوب وغيرهم، مثلما ذكره تلميذه حمودة عبد العزيز في تاريخه الباشي قائلا في شأنه أنه من علماء الحنفية بالمغرب وأنه لم يوجد من مثله منذ زمن بعيد، وذكر أنه توفي يوم الأربعاء آخر شوال 1214هـ، عن أربع وثمانين سنة[3]، ومن أشهر مؤلفاته "اختصار انفع الوسائل" للطرسوسي(ت785هـ) الذي سماه "بغية السائل باختصار انفع الوسائل لتحرير المسائل"، وله رسالة في السياسة الشرعية[4].

أبو عبد الله حمودة بن عبد العزيز (ت1787م) ولد بتونس التي نشأ وطلب العلم بها، وأخذ عن علمائها، حتى برع في الإقراء بالجامع الأعظم، وتخرج على يديه علماء أعلام على رأسهم محمد بيرم الثاني وعالما المالكية الشيخ محمد المحجوب وعمر المحجوب وله حاشية على الوسطى، وعدد من الرسائل الكلامية وديوان شعر، وجعله الأمير علي باي في خطة لإنشاء وهو ما ساعده على تأليف كتابه "تاريخ الباشي"[5].

محمد بن أبي الضياف (ت1874م) مؤلف "إتحاف الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان"، ومحمد بن الطيب بن سلامة (ت1849م) صاحب "العقد المنضد في أخبار مولانا المشير أحمد" وقصيدة "الدرة النفيسة في أمراء تونس الأنيسة"، وحسين خوجة (ت1755م) صاحب "تباشير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان"، ومحمد أبو راس الجربي صاحب "مؤنس الأحبة في أخبار

1النيفر، مرجع سابق، ص ص570، 581.
2نفسه، ص 611.
3نفسه، ص ص218، 219.
4السنوسي، مرجع سابق، ج2، ص36.
5النيفر، مرجع سابق، ص ص623، 624.

جربة"، ومحمد بن سليمان المناعي (ت1831م) له تقاييد في شكل كناش، ومحمد بن محمد الصغير بن يوسف الباجي (ت1763م) صاحب "المشرع الملكي في سلطنة أولاد التركي"، محمود بن سعيد مقديش الصفاقسي(ت1813م) صاحب "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار"[1].

أبو عبد الله محمد بن حسين الدرناوي الطرابلسي الأصل تلقى العلوم في الزيتونة، كان له في الأدب بلاغة حصل بها على خطة الإنشاء في دولة الأمير علي باي، ثم تولى رئاسة الكتابة بعد وفاة أبو العباس أحمد الأصرم، توفي في1211هـ[2].

أبو عبد الله محمد بن حسين باكير الذي قرأ على يد الشيخ حسين البارودي والشيخ بيرم الأول وله حاشية على الدر المختار، وأبو الحسن علي عطية صاحب شرح الأربعين حديثا التي جمعها أبو عبد الله محمد بن الحسين باكير، وأبو الحسن علي خليف القيرواني المشهور بإجادة الشعر ومما قاله في أبي عبد الله محمد بن الحسين باكير السابق الذكر إمام جامع باردو:

جمعت دواء الجهل والفقر للـــــورى بميزان عدل منكم طابق الغـــرض

فدونك منك ميزان الضنى عشت سالما لتجمع طب الفقر والجهل والمرض

وابو العباس أحمد بن أحمد بن محمد ين حسين الصفاقسي الذي عرف بتمكنه في علوم الدين والفتاوى والأحكام والفرائض والحساب، وأبو عبد الله بيرم الثاني المولود في 16ذي القعدة1162هـ في بيت علم ومجد تولى القضاء مرتين كما تولى نقابة الأشراف ثم تقلد خطة الفتوى بعد وفاة والده، له محررات علمية منها رسالة في بيع الوفاء وأخرى في رجوع الوصي عن وصيته وله منظومة في الهلال وأخرى في المفتين على مذهب أبي حنيفة[3].

أبو عبد الله محمد بيرم الثالث ولد في 27ربيع الأول1201هـ في بيت علم، كان عارفا بالمعقول والمنقول، تولى مشيخة المدرسة العنقية وكانت حالتها سيئة جدا حتى صارت مرمى للنفايات، فجمع ما ستطاع من اوقافها وبادر إلى ترميمها إلى أن احياها وبعثها من جديد في جمادى الأولى سنة 1236هـ[4]، تولى الخطابة بجامع صاحب الخيرات يوسف صاحب الطابع وكان أول خطيب فيه، تقدم للفتوى في حياة والده، وبعد وفاته تولى رئاسة المجلس الشرعي الحنفي وخطة نقابة الأشراف، توفي في27ربيع الأول1259هـ[5]، وأبو اسحاق ابراهيم بن عبد القادر الرياحي أصله من المحاميد القاطنين بطرابلس الذين دخلوا افريقية زمن الصنهاجيين، ولد بتستور سنة1181هـ[6]، تفرغ للعلم حتى بلغ مراده، تولى قضاء الجماعة ثم رئاسة الفتوى ثم التدريس التفسير والحديث بجامع الحلفاوين، بطلب من الأمير حسين باشا. له رسائل في مسائل كثيرة في فنون متعددة، وله فتاوى تبلغ جزءا ضخما

1 سعيدوني، مرجع سابق، ص ص 153، 150.

2النيفر، مرجع سابق، ص633.

3نفسه، ص ص639، 672.

4السنوسي، مرجع سابق، ج2، ص90.

5النيفر، مرجع سابق، ج2، ص ص717 ،718.

6ورد في مصدر آخر أنه ولد في1880هـ. أنظر: السنوسي، مرجع سابق، ج1، ص252.

وديوان خطب يبلغ تسع وتسعون خطبة، وله ديوان شعر جمعه حفيده أبو العباس أحمد الرياحي نحو العشرة كراريس، توفي ليلة 28رمضان1266هـ[1].

الوزير أبو عبد الله محمد الأصرم باش كاتب نشأ في بيت علم، تولى رئاسة الكتاب بعد وفاة عمه، نال وجاهة عند الأمير أحمد باشا ومعاملة طيبة مثلما نالها من الأمير محمد باشا والأمير محمد الصادق، وتوفي في20شوال1277هـ، وأبو عبد الله محمد بيرم الرابع المولود في جمادى الأولى1220هـ تلقى العلم على يد جده بيرم الثاني وتولى الفتوى في عهد جده، ولاه الأمير أحمد باشا رئاسة الفتوى الحنفية ونقابة السادة الأشراف مكان والده وتولى الخطابة بجامع صاحب الطابع ثم الجامع اليوسفي، وهو أول من تلقب بشيخ الإسلام في تونس وكان الأمير يقربه ويستشيره في المهام ويصله بأسنى العطايا ولما تولى الخلافة الأمير محمد باشا قربه وولّاه أمر الخطط الدينية، ومن آثاره "تراجم خطباء الحنفية" وكتاب "الجواهر السنية في شعر المتأخرين" ورسالة شرح فيها قواعد عهد الأمان، ومحررات فقهية في مسائل مهمة، توفي في04جمادى الأولى1278هـ[2].

أبو عبد الله محمد الطاهر بن محمد بن عاشور ولد في بيت علم تلقى تعليمه على يد شيوخ بلده، تولى قضاء الجماعة ثم ولاه الأمير محمد الصادق باشا خطة الفتوى ثم تولى نقابة السادة الأشراف بعد وفاة بيرم الرابع، ومحمود بن علي قابادو الشريف الذي نشأ في بيت علم وعرف عنه شدة ولعه بعلوم اللغة والبلاغة والشعر، تولى التدريس بمكتب الحرب بباردو ثم جامع الزيتونة وقضاء باردو ثم الفتوى على المذهب المالكي ومشيخة مدرسة التربة الكبرى، أبو عبد الله محمد الباجي الكاتب والشاعر ، تولى الكتابة وبلغ منزلة في الإنشاء صاحب كتاب "الخلاصة النقية في أمراء إفريقية" توفي سنة 1297هـ[3].

أبو عبد الله محمد بن عثمان السنوسي ولد 1266هـ جمع بين العلوم العقلية والنقلية، تولى التدريس بزاوية سيدي الهياص خارج باب القرجاني، ثم جامع حمودة باشا المرادي، وكان كثير التأليف فقد ترك مجموعة من الدواوين في الأدب شملت دواوين المتأخرين من شعراء تونس وجمع ديوان الشاعر الشيخ محمود قابادو وله تاريخ خص به قضاة تونس وأئمة جامعها الأعظم والمفتين سماه "مسامرة الظريف بحسن التعريف" وشرح في القانون العقاري سماه "مطلع الدراري". وجمع شروح مختصر خليل فكان زهاء الثمانين، كما كانت له مشاركة في كتابة تاريخ الحسينيين ضمن "دائرة المعارف" عندما زار بيروت، توفي في رجب1318هـ[4].

محمد بن محمد الطيب ابن محمد النيفر صاحب "عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب" ولد في شعبان 1277هـ وتوفي في السادس رمضان1330هـ، نشأ في بيت علم، حصل على شهادة التطويع سنة 1299هـ، تولى التدريس بجامع الزيتونة1312هـ ثم انتخب عضوا في لجنة تحرير فهرست كتب المكتبة الصادقية، ثم اختير عضو أول لتحرير فهرست كتب المكتبة الأحمدية، ثم تقلد خطة حاكم معاون بالمجلس المختلط العقاري، ثم عين عضو اللجنة المشكلة للنظر في إصلاح التعليم بجامع الزيتونة مثلما عين كعضو بلجنة النظر في الأراضي المشتركة بين العروش، ثم نائب الدولة لدى النظارة العلمية بجامع الزيتونة

1النيفر، مرجع سابق ج2، ص724، 726.
2النيفر، مرجع سابق، ص ص848، 854.
3نفسه، ص ص906، 930.
4نفسه، ص ص952، 953.

سنة1329هـ من أشهر مؤلفاته "واسطة التاج فيما إليه من عيون الحكم والوصايا يحتاج" وكتاب "تقويم المنطق الحضري بكف اللسان المضري" وكتاب "اللآلئ النضيدة بتاج اليقوتة الفريدة" ورجز سماه "جلاء العين بذكر الوزير خير الدين" الذي تبلغ أبياته زهاء الثلاث مائة وخمسين بيت وكتاب "برهان البقية من أدب أهل إفريقية" وكتاب "التحفة السنية في الأخلاق والسيرة المدنية العقلية" وكتاب "حسن البيان عما بلغته افريقية في الإسلام من السطوة والعمران" في ثلاثة أجزاء، إضافة إلى رسائل كثيرة، وأبو عبد الله محمد بن عثمان الحشائشي نشأ في بيت علم وأخد من جامع الزيتونة على مشايخه الأعلام وكان شديد الاهتمام بعلمي الأدب والتاريخ، صاحب الرحلة المشهورة إلى ليبيا وله كتاب في العادات والتقاليد، كان له مشاركة في اللجان المكلفة بمكتبة جامع الزيتونة، توفي في ذي الحجة1330هـ[1].

وبالنظر لما سبق ذكره من اعلام تونس وتراثهم الفكري نلاحظ ذلك الانصهار الفكري والعلمي بين علماء تونس من الموالين للسلطة مع غيرهم، وهي السمة التي عرفها العثمانيون خلال تاريخهم الطويل من تعددية مذهبية، مثلما عُرفوا بتفتحهم على أنماط أخرى من الحياة الاجتماعية، والذي أدى إلى في تشكل تنوع ثقافي واجتماعي، رغم أن العثمانيين قدموا العلماء الأحناف على غيرهم إلا أن هذا التقديم كان في المناصب العليا فقط، بدليل أن من الشافعية والمالكية من تولى مناصب الفتوى والتدريس والإمامة والأوقاف، كما تذكر الدراسات التاريخية أن الأحناف قد تضائل وجودهم في المناصب العليا مع بداية القرن السابع عشر، بالموازاة مع تولي العرب للمناصب العليا في الدولة.[2]

6. خاتمة:

الحياة العلمية بتونس هي في حقيقتها امتداد لأنماط وطرق التعليم التقليدية المعروفة في الكثير من البلاد العربية والإسلامية، والتي تتم في المساجد والمدارس القرآنية والزوايا، وتدرس فيها مناهج تكاد تكون مشتركة في مجالات التوحيد والفقه والحديث، وفي السير وعلوم اللغة والعلوم النقلية الأخرى.

غير أن البلاد التونسية خلال العهود المتأخرة عرفت قفزة نوعية في المناهج التعليمية وفي عدد المؤسسات التعليمية، وشهدت تنظيمات جديدة أدت إلى تحول في الحياة العلمية التي أنتجت رصيد فكري وفني سد حاجة المكتبات بفضل الشروح والحواشي التي أضيفت على أمهات الكتب، إضافة إلى حركة التأليف التي انتعشت أكثر بالنظر للقوافل من الطلبة الذين تخرجوا والطلبة الذين قصدوها من مختلف البلاد العربية والإسلامية.

1نفسه، ص ص1036، 1075.

2هيثم مزاحم، الفتح العثماني للأقطار العربية1516-1574(نيقولاي ايفانوف)، مجلة الاجتهاد، ع44، السنة11، الفلاح للنشر والتوزيع، 1999، ص07.

7. قائمة المراجع:

المؤلفات:

1. ابن الشماع ابو عبد الله محمد بن أحمد، الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1984.
2. بن عاشور محمد الفاضل، الحركة الأدبية في تونس، مطبعة دار الهنا، تونس، 1956.
3. التجاني أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981.
4. تراتيب التدريس جامع الزيتونة، المطبعة الرسمية العربية، تونس، 1912.
5. التميمي عبد الجليل، دراسات في التاريخ العربي العثماني1453-1918، ، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، تونس، ط1، 1994.
6. الحداد الطاهر، التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة، تحقيق محمد أنور بوسنينة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1981.
7. حسني عبد الوهاب حسن، خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، د.س.ن.
8. خليل احمد ابراهيم، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني1516-1916، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، العراق، 2005.
9. زين العابدين السنوسي، محمود قبادو، مكتبة العرب، تونس، 1951.
10. سعيدوني ناصر الدين، ولايات المغرب العثمانية الجزائر تونس طرابلس الغرب، ، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2014.
11. السنوسي محمد بن عثمان، مسامرات الظريف بحسن التعريف، ج1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط1، 1994.
12. الشريف محمد الهادي، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، دار سراس للنشر، تونس، ط3، 1993.
13. الطويلي أحمد، الأدب بتونس في العهد الحفصي(625_981هـ/ 1227_1574م)، مركز النشر الجامعي، تونس، 2004.
14. الطويلي أحمد، بناة الدولة التونسية الحديثة حمودة باشا وأحمد باي وخير الدين، ، المغاربية للطباعة وإشهار الكتاب، تونس، ط1، 2019.
15. الطويلي أحمد، في الحضارة العربية التونسية، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، د.س.ن.
16. العبدري البلنسي محمد، الرحلة المغربية، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ط1، 2007.
17. النيفر محمد، عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم وأديب، ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، مج،1 ط1، 1996.

المقالات:

18. مزاحم هيثم، الفتح العثماني للأقطار العربية1516-1574(نيقولاي ايفانوف)، مجلة الاجتهاد، ع44، السنة11، الفلاح للنشر والتوزيع، 1999.